الحاضر السرمدي عند د. عبد الغفار مكاوي

بقلم: د./ إبراهيم صقر(*)

باديء ذي بدء أود أن أقول: إنه لا ينبغي أن ينظر إلى أ.د./ عبدالغفار مكاوي باعتباره أستاذًا جامعيًا له مكانته الأكاديمية والعلمية المرموقة في مجال الفلسفة فحسب بل ينبغي النظر إليه كأديب وقاص يمزج الحس بالعقل والأدب بالفلسفة ليخرج من ذلك ثقافة حرة يرتاح لها المتأدب ولا ينفر منها المتفلسف.

ولعل هذا هو السبب في أننا نجد كتاباته حارة دافئة تمتزج فيها الفكرة بالعاطفة ويختلط فيها التصور العقلي بالتأثر الوجداني وليس القالب الأدبي الذي صاغ فيه تأملاته الفكرية الفلسفية سوى تأكيد لهذه الحقيقة المهمة وهي أن الروح الفلسفية لا تعني القضاء على شتى العواطف والانفعالات والانتصار على كافة الأهواء والشهوات وإنما يدرك الفيلسوف ما هو ميسر له من خلال الدموع والابتسامات.

أضف إلى ذلك أنه لم يستطع في أسلوبه أيضا أن يعبر عن المعاني تعبيرا موضوعيا خالصا ولعل هذا هو السبب في أننا كثيرا ما نبحث عن أ.د./ عبدالغفار مكاوي الفيلسوف فلا نكاد نلتقي إلا بالإنسان فنحن لانستطيع الفصل بين الفيلسوف والإنسان فإن خبراته الروحية وتجاربه الوجودية في الأصل في مشكلاته الفلسفية وتأملاته الفكرية نجد ذلك واضحا في معالجته لمشكلة الحاضر السرمدي والبداية هي التساؤل عن لغز الحاضر الذي حير عقل الإنسان وقلبه منذ أن عاش بين الطقوس والأساطير إلى أن أطلق مركبات الفضاء؟

كلنا يحس سر الزمن، قد لا نتمكن من التعبير عنه ولكننا نحس بزمنيتنا في كل قول وكل تجربة وكل موقف نمر به فالزمن قدرنا والزمن أملنا وبأسنا وتجربة الإنسان بزمانيته هي تجربتنا

(*) أستاذ ورئيس قسم الفلسفة بكلية الآداب – جامعة الفيوم.

الحزينة بزواله وانقضاءه وتناهيه فالزمان نهر متدفق أبدا يجرف كل أبنائه معه وشكوى الإنسان من الزمان شكوى أزلية وأغلب الظن أنها ستبقى شكوى أبدية.

فهل هناك أشد إيلاما من اليقين بأن كل ما حولنا ونحن أيضا سنغوص ذات لحظة في الماضي لنصبح خبر كان، أي شيء أبعث على الحزن من العلم بأن الميت في هذا العالم يزيد ملايين المرات على الحي وأن وجودنا الذي يمتد الآن بجذوره في الماضي يسرع دون توقف نحو اللحظة التي سيتلاشى فيها. فالزمان يلتهم كل ما فيه ويلقي في قبره الذي لا يشبع ولذا ارتبط الزوال والانقضاء فالماضي لم يعد له وجود والمستقبل لم يكن بعد فإذا أقبل فسرعان ما يتحول إلى ماض والماضي والمستقبل كلاهما لا وجود لهما في وجدان الإنسان إلا من حيث هما حاضران في تذكر الماضي وتوقع المستقبل.

أما الحاضر فلا وجود له في تجربتنا اليومية وكلما مددنا أيدينا للتثبت به تسربت منها حبات رمال الزمن أو أناته وكلما حاولنا أن نمد هذه اللحظة الغالية من الامتداد في لحظات الصفاء والحب والأنس أو حاولنا أن نقصر منها في لحظات الرعب واليأس روعتنا الحقيقة المحتومة: إن كل مستقبل يصبح فيها ماضيا وأن حاضرها حد وهمي أرق ملمسا من نسمة الريح.

ويتساءل أ.د/ عبدالغفار مكاوي أنعيش بلا حاضر إذًا؟ أتكون حياتنا حلما أم نخطو على طريق بلا أرضية نقف عليها؟ أتكون حياتنا حياة الأسرى المغلوبين الذين يتعثرون في الهاوية باستمرار؟ حتى لا يبقى أمامنا إلا الاستسلام للبكاء واليأس أو الوثوب فوق جدار الزمن إلى حظيرة الأبدية لنلتمس فيها الخلود والبقاء ويخفف على أيديهما دموع السفر والشقاء ونتعلل بالسعادة والهناء.

نحن زمانيون لا نملك الهروب من الزمان وفي الوقت نفسه لا زمانيون بمعنى أن الزمن هو المرآة التي نرى عليها السرمدية فنحن قادرون على المشاركة فيما هو فوق الزمان أي في السرمدية ولو للحظات كالبرق الخاطف فما دام الإنسان بطبعه كائنًا زمانيًا فإنه سيكون كذلك قادرًا على المشاركة في الآن أو السرمد بل ربما كان من واجبه أن يسعى إلى هذه المشاركة حتى يكون إنسانا بحق.

ولهذا يذهب أ.د/ عبدالغفار مكاوي إلى القول: إن شوكة فنائنا هي خلودنا لأن الشيء الفاني لن يؤلمه فناؤه ولأن ما يمكنه أن يحيا فقط سيمكنه أن يموت فقط أما من يشعر أن كل شيء لابد أن

يفنى ذات يوم فإن شعوره هذا يرفعه فوق ذاته وفوق الكل، كل شيء ينقضي و يزول أنا وأنت وكل ما يحيط بنا ولكن فيك وفي شيئا يزيد على الكل ويختلف عنه وإلا ما عرفنا عنه شيئا.

ويرى أستاذنا أننا لانحيا في مجرى الزمان بل فوق الزمن لأن السرمدية تنفذ للزمن وتضفي عليه الحضور كما أن الإنسان يمكنه بل يجب عليه أن يستحضرها فيه فالسرمدية حاضرة دائما وهي سبب إحساسنا بالحاضر على الإطلاق إذ لولاها ما أمكننا أن نقول الآن.

فهي لحظة خالدة لحظة نفاذ السرمدية في الزمانية اللحظة التي يتعانقان فيها حتى لو كان عناق في اللمسة أشبه بوميض من الشمعة أو لمح البرق - فتؤكد وجودنا وحاضرنا في الآن ونعي ذاتنا ونتشبث بصخرة اللحظة ونقاوم طوفان الزمن الصاخب ونثبت أننا جديرون به وبالنعمة السرمدية حين نكون أوفياء للحظة مستعدين لتحمل مشاقها وقسوتها استعدادنا لترقب نورها وبرقها.

وإذا أراد الإنسان أن يجرب الحضور الحق - فيما يرى أ.د/ عبدالغفار مكاوي فلابد أن تنبهه الأشياء وتوقظه بقوة ولابد أن يملك القدرة على رؤية الأعماق الكامنة وراء السطح والكشف عن الأقنعة التي خلفتها العادة هنالك يكشف الواقع عن وجهه الملكي أو وجهه الإلهي.

ولهذا لن يدهشنا أن نجد المتصوفة من أصحاب الرؤية والكشف في الشرق والغرب على مر العصور هم أول من يحدوثننا عن تجربة الحضور الكامل أو عن اللحظة الخالدة أو تجربة الآن الخارج على الزمان.

فالطبيعة كتاب مفتوح لكل من له عين وكلما ازدادت العين حدة والنظرة نفاذا تفتحت لنا الطبيعة وأعطتنا كل كنوزها غير أن الإدراك الحسي لا يكفي وأعضاء الحس لاتمكنا من إدراك اللب والجوهر ولاغنى لنا عن رؤية الروح كي نتأمل ونشاهد مالا نراه بعين الجسم ولابد أن يرتفع وجودنا نحن كي نلمس حقيقته وكلما ازداد حظنا من العظمة كشف لنا العالم عن عظمته فاللحظة التي تنكشف فيها روعة الواقع هي نفس اللحظة التي ترفع وجودها إلى الحسي هنالك نتطلع برعشة السعادة المجهولة إلى المجهول الرائع وجها لوجه.

ويعلن اللانهائي عن نفسه في كل شكل من أشكال الطبيعة أو في حادث عادي مما يجري في حياة العالم أو حياة الناس فسيعلن اللانهائي عن نفسه في كل مرة سندرك الكل بنظرة واحدة سيتجلى الآله في كل ما هو أرضي سيطل علينا في اللحظة السرمدية اللحظة التي يتوقف عندها

الزمن أو أوقفت هي الزمن حتى يتم اللقاء بأنفسنا والآخر عندها نجرب الحضور الكامل الحضور السرمدي عندها لا يعود الحاضر شكلا من أشكال الزمان ولا بعدا من أبعاده بل الخلود اللازمني الذي أتيح لنا أن نقبس لمحات من برقة ونلمس ومضات ناره.

ويستشهد أ.د/ عبدالغفار مكاوي بما كتبه جوته في إحدى قصائده الفلسفية المتأخرة بعنوان «وصية»: النعمة بين يديك فمتع نفسك بالقسطاس.

وليكن العقل أنيقا لا يتخلى عنك

حيث تسر حياة بحياة

عندئذ يبقى الماضي ويدوم

والمستقبل يصبح حيا قبل أوانه

واللحظة تصبح الأبدية

في تجربة اللحظة الخالدة يكتمل وجود الإنسان كما يكتمل الوجود نفسه تبقى نظرة عين واحدة كالشمس تحاول أعيننا أن تتجلى فيها حيث نشارك في الآن الخالدة أو نصبح نحن الآن الخالد وليس أقدر من الحب على التعبير عما نعجز عن التعبير عنه فلننظر إلى ما يقوله الشاعر جوته على لسان الحبيبة في قصيدته.

الحبيبة مرة أخرى

هكذا وقفت أمامك كي أتطلع إليك

ولم أقل شيئا وماذا كان لي أن أقول

كان كياني كله قد اكتمل قد اكتمل في ذاته

لقد اعتاد الناس أن يمروا ببعضهم البعض مرور العابرين دون أن يرى أحدهم الآخر رؤية حقة ويظل الحال كذلك حتى تصيبهم النظرة الخالدة ويسطع الحاضر سطوع البرق.

وقل في نفس الشيء عن لقائنا المعتاد والسماء والأرض وبأشكال الوجود المختلفة بالأحداث الكبرى والصغرى فكلها يمر بنا ويعبرنا ونحن تائهون عنها في حلم أو كابوس لا نفيق منه فجأة يتم اللقاء تشرق الحقيقة يتفتح الوجود تدخل تجربة الحضور.

obeikandl.com

يقول الشاعر شيلر في حكمه على لسان كونفوشيوس ثلاثية هي خطوة الزمان:

مترددا يأتي المستقبل على مهل

وفي سرعة السهم طار الآن

والماضي ساكن سكون الأبد

فالخطوات الزمانية - الماضي والحاضر والمستقبل - ثلاثة وجوه للخلود والسرمدية أنها لتفقد أشكالها الزمنية التي طالما اختلفت حولها العقول وطالما حاولت قياسها كما يقاس المكان أو مدت لها حبال الديمومة في التذكر أو الانتظار ولو التقى الإنسان بها كما ينبغي أن يكون اللقاء لأصبحت كلها حاضرا ممتدا في وعيه ولأصبح وعيه الباطن هو وعاء الحاضر السرمدي عندئذ يعي الوجود نفسه كما يتم وعيه بالآخر وبوجوده هو نفسه وكيانه عندئذ تتكشف له معاني كلمات تسمعها كل يوم يثرثر بها معظمنا ويسعى أقلنا إلى فهمها والعمل بها كالحرية والتفتح والشخصية والواجب والمسئولية والخلق والإبداع والقلق والشجاعة والحب والتفاني والصدق والأصالة... إلخ.

عندئذ ترجع النقطة إلى البحر الذي أنبثقت منه أو قل تصبح هي البحر عندئذ يصبح ما في العالم والإنسانية ومستقبلها حاضرا يحيا بحياة اللحظة الأبدية التي تصبح جنينا نحمله في أحشائنا ونحتوي عليه حتى تلده اللحظة عندئذ تصبح هذه الأمانة التي عرضت على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان فعندئذ نلمس السرمدية أو نكون نحن جزءا من السرمدية في لحظة وعي فوق الزمن اللحظة - في أحضان السرمدية - فأبعاد الزمان الثلاثة يمكن أن تصبح كلها حضورا سرمديا في أزلية الماضي وأبدية المستقبل وخلود اللحظة الحاضرة.

obeikandl.com